

أشعار منبثورة للإيقان تورجنيف

بقلم

الأستاذ على أرهم

على حساب الشعر، حتى بلغ الذروة في واقعية تورجنيف ودستوفسكي وتولستوى وغيرهم ممن هم أقل منهم شأنًا ولكنهم مع ذلك من ذوى المواهب الأدبية السامية الممتازة .

وقد كان أكثر الكتاب الروسين الذين اشتهروا في القرن التاسع عشر من طبقة الأشراف الإقطاعيين الذين يعيشون على استغلال جهود الفلاحين المستعبدين والذين لم يرفع عن كاهلهم نير العبودية إلا في سنة ١٨٦١ وكان شعور هؤلاء الكتاب بأنهم يعيشون على كدّ الفلاحين المحرومين من الحرية والثقافة يجعلهم يتصورون أنهم أشخاص زائدون عن الحاجة ويوسع الهاوية بينهم وبين سواد الشعب الغارق في الجهالة ، ولذلك نرى في مؤلفات هؤلاء الكتاب أنواعاً مختلفة من طراز الرجل « الزائد عن الحاجة » وبخاصة في مؤلفات تورجنيف وتشيكوف .

وبعد ثورة سنة ١٨٢٥ التي لم تستطع تحقيق هدفها وأخذت بقسوة متناهية، أخذت طبقة السادة المثقفين تتحول إلى الطبقة المستنيرة ، ولكن هذا المزيج الاجتماعي الفذ لم يكن قوى الصلة بالأغلبية الساحقة من المواطنين كما كان منظوراً إليه بعين الريبة والقلّة من ناحية

ازدهار الأدب الروسى في القرن التاسع عشر ونضجه، وبلوغه مستوى الأدب العالمى الرفيع، يعد من الغرائب والمدهشات التى تكاد تلحق بالحوارق والمعجزات ، فقبل قرنين ونصف قرن لم يكن لروسيا إثارة من أدب بالمعنى المفهوم فى آداب الأمم الغربية ، وقد فرض بطرس الأكبر الحضارة الأوربية على روسيا فرضاً ، وحملها مكرهة على قبولها ، فأقبل الروسيون على الآداب الغربية باعتبارها عنصراً من عناصر الحضارة الأوربية ، وظلوا طوال القرن الثامن عشر كالمتعلم المجد، يقتفى آثار أسناده الحاذق، ويحسن الأخذ عنه ومحركاته ، ولكنه لا يأتى بمجد يدل على أصالته ورسوخ قدمه ، وظهر بوشكين (١٧٩٩ - ١٨٣٧) فى أوائل القرن التاسع عشر ، ومكنته عبقريته وثقافته الأوربية من أن يضع أساس الأدب الروسى ، وأعاناه فى الاضطلاع بهذه المهمة ليرمنتوف (١٨١٤ - ١٨٤١) والكاتب الروائى جوجل (١٨٠٩ - ١٨٥٢) الذى مهد السبيل لوثبة النثر الروسى .

وقد كان الشعر أسبق ظهوراً فى هذه النهضة الأدبية شأنه فى سائر النهضة الأدبية، والانبثاقات الحضارية ، وفى الأربعينيات، من القرن التاسع عشر، أخذ النثر يتقدم

الطبقة الحاكمة ، وبرغم ذلك كان هم أفراد الطبقة
المستنيرة تحرير الفلاحين ، ولما تم ذلك أخذت تعمل
على تقريب مسافة الخلف بين المثقفين وبجمهرة الشعب ،
وكثير من أنصار الشعب تنازلوا عن امتيازاتهم في
السبعينيات ، وانضموا إلى جماعات الشعب لينهضوا
بالمزارعين ويمتزجوا بهم ، وقد أصبحت العلاقة بين
المستنيرين وسواد الشعب من المشكلات التي استأثرت
باهتمام الروسيين ، ولا تزال موضع عنايتهم حتى اليوم .
وقد أصبحت جميع المسائل الخاصة بالحياة الثقافية
الشغل الشاغل لجماعة المستنيرين ، وقامت حولها
مناقشات حادة ومجادلات حامية ، ومما زادها شدة
وحدة انقسام المستنيرين إلى فريقين متعارضين وهما
أنصار النزعة السلافية الذين كانوا يؤيدون الثقافة
القومية ، ويزعمون أن لروسيا رسالتها الإنسانية الخاصة ،
وأنصار الاتجاه إلى الغرب الذين كانوا يدعون إلى
الأخذ بالنظم الأوروبية ، والتفكير الغربي وأساليب الحياة
الغربية .

وكان أكثر أنصار النزعة السلافية من المثقفين
بالتقاليد الطبقية والأفكار الدينية ، وكان بين أنصار
الاتجاه إلى الغرب عدد كبير من الشعبيين ، وكان
لانقسام المستنيرين إلى هذين المعسكرين تأثير بعيد المدى
في الحركة الأدبية الروسية ، والاتجاهات السياسية والثقافية
بوجه عام ، ولا تزال آثاره بادية إلى اليوم في أدب
روسيا وسياستها .

ومن كبار ممثلي نزعة الاتجاه إلى الغرب في تاريخ
الأدب الروسي ايفان تورجنيف ، وهو يمثل كذلك
طبقة الملاك المثقفين ، وقد ولد سنة ١٨١٨ من
والدين أرستقراطيين ، وكانت أملاكهما في مقاطعة
أوريل الواقعة في جنوب موسكو وشمال أوكرانيا ،
وقد قضى بها أيام طفولته ، ولذلك كانت معرفته بها
معرفة صميمية ، وقد درس حيناً من الزمن في جامعة
موسكو ثم في جامعة بتروغراد ، ودرس في برلين بين

سنة ١٨٣٨ وسنة ١٨٤١ وكانت فلسفة هيجل هي
النزعة الفكرية السائدة حينذاك وقد أخذ تورجنيف
بالتفكير الألماني ، وفن بالثقافة الأوروبية عامة ، ومن
ذلك الحين لم يتزعزع إيمانه بالحضارة الغربية ، ولم يكف
عن الدعوة إلى الاتجاه نحو الغرب مع احتفاظه بطابعه
الروسي وفرط حبه للغة الروسية .

وبعد عودته إلى روسيا شارك في الحركة الأدبية
الصاعدة ، ولكن مجهوداته الأولى كانت محاولات
لاختبار ملكاته وتلمس الطريق الذي يسلكه ، وقد ظل
حيناً من الزمن متردداً بين الشعر والدراما والنثر ،
وقد نجح في منظومته المسماة « باراشا » التي نظمها سنة
١٨٤٣ وتأثر في نظمها بأسلوب بوشكين الذي كان
يعجب به أشد إعجاب وطريقة ليرمونتوف ، وفي
بعض القصص القصيرة التي كتبها في تلك الفترة ظهر
تأثره بجوجل الذي كان يعتبره أحد موجدي الأدب
الروائي الروسي ، وألف بعض المسرحيات مثل مسرحية
« شهر في الريف » ومسرحية « سيدة من الريف »
وشرع في كتابة « صور صياد » ، وقد وطد هذا
الكتاب الذي خلّب الألباب ولفت الأنظار مكانته
الأدبية وأبعد شهرته ، وكان عاملاً هاماً في إلغاء الرق
وإزالة هذا العار الذي كان يشين الأمة الروسية ويزرى
بمكائنها بين الأمم المتحضرة ، وقد وصف تورجنيف
في هذه الصور الرائعة حياة الفلاحين الروسيين وما كانوا
يعانونه من شظف العيش ، وكان موضوعه حين
ظهوره موضوع الساعة ، فقد كانت حالة المزارعين
الروسيين قد بلغت أقصى درجات السوء ، وكان أكثر
الكتاب الذي يعرضون لوصف أحوالهم يتناولون
الموضوع من ناحية إنسانية وبأسلوب ذاتي غير خال من
أثر الدعاية ، وكان يصرفهم ذلك عن دقة الوصف
وصدق التصوير ، أما تورجنيف فقد تناول الموضوع
من زاوية فنية مبتكرة ، وسجل لنا انطباعاته ، وروى
مشاهداته في غير مبالغة ولا محاولة للتأثير ، وأتى بصور

من حياة هؤلاء البائسين وعرضها عرضاً نزيهاً لا يرمى إلى استدرار العطف ، أو الاستفزاز ، وإثارة الغضب وتحريك الأحقاد ، وإن كان القارئ يستطيع أن يتبين من وراء السطور عطفه الخفى الصامت على هذه الطبقة المظلومة وضيقه بعنف الاقطاعيين الطغاة الذين نزع من قلوبهم الرحمة ، وتملكهم الجشع ، وقد تجلت في هذه الصور قدرة تورجنيف الفائقة على وصف المناظر الطبيعية وصفاً شائقاً بأيسر الطرق وتصوير الأشخاص بسماتهم البارزة الدالة على جوهر شخصيتهم ومكون نفوسهم وذلك بلمسات سريعة كاشفة ، مع جلال السرد وعذوبة الأسلوب وشاعريته ، وقد ظلت هذه الصفات ظاهرة في مؤلفات تورجنيف التي كتبها بعد ذلك .

ولم يكن تورجنيف ممن يتعلقون بالأفكار المجردة ، والفكرة عنده على الدوام تأخذ صورة مجسمة ، وتبدو في شكل الأنف أو صورة الذقن أو طريقة لبس القبعة ، وهي تحمل الدلالة كما تحملها الكلمة الموحية مما يذكرني بقول المتنبي في ابن العميد :

خلقت صفاتك في العيون كلامه

كان الخط يملأ مسمعى من أبصرا

وتورجنيف نفسه يقول : إنه لم يحاول خلق طراز من الشخصيات دون أن يكون أمام ناظره شخصية حية تنسجم فيها العوامل المختلفة التي يود أن يؤلف بينها ، فهو كاتب واقعي من فرعه إلى قدمه ، وقوة ملاحظته أكثر ظهوراً في أدبه من قوة الخيال واتساعه ، ويمكن بسهولة أن نلاحظ أن دستوفسكى يصف أشخاصه من الداخل ، وأن تولستوى تتعادل فيه القدرة على الملاحظة الدقيقة والتحليل النفاذ ، أما مجال إبداع تورجنيف فهو الوصف الخارجي ، وهو يمتاز كذلك ببراعته في بناء رواياته وأقصوصاته وإحكام خطتها .

وقد كانت أولى رواياته المشهورة « رودين » التي ظهرت سنة ١٨٥٥ وهي تصف شخصية رجل على غير وفاق مع بيئته ، يتحدث ببلاغة ساحرة عن مشروعاته

الباهرة ، ولكن سرعان ما يتكشف لنا هذا المتحدث المفوه والمفكر الألعى عن رجل واهن العزيمة ، لا يمكن الاعتماد عليه والاطمئنان إليه ، ويصف لنا تورجنيف جوانب نفسه جانباً فجانباً حتى تكتمل في أخلادنا صورة شخصيته ، وهو يأسر قلوب النساء بعباراته الساحرة وحاسته المتدفقة ، ولكنه يتخلى عنهن في اللحظة الحاسمة والموقف الأخير ، ويقال : إن صور رودين على مثال الزعيم القوضوى المشهور باكونين .

وقد تلتها رواية ليزا أو عش الظرفاء التي ظهرت في سنة ١٨٥٨ وهي آية من آيات الفن الروائي ، تدور حول شخصية لافرتسكى أحد الملاك الروسين المثقفين غير المخدوع في زوجته السادرة اللاهية التي تعيش في خارج روسيا ، وتنشأ علاقة حب بينه وبين ليزا تلك الشخصية الجذابة الورعة المخلصة ، وتأتي الأخبار من الخارج بأن زوجته قد توفيت في حادثة تصادم ، ويستعد الحبيبان للزواج ، ولكن زوجة لافرتسكى تظهر فجأة ، ويتضح أن خبر وفاتها لم يكن سوى إشاعة كاذبة ، فيستسلم الحبيبان للقضاء القاسى ، وتلوذ ليزا بالدير ، ويراهم لافرتسكى بعد سنوات في الدير ولكنه لا يتحدث إليها ويصف لنا تورجنيف أثر هذا اللقاء في نفس لافرتسكى وصفاً يرتفع إلى قمة الشاعرية والابداع الفنى وأحسبه من أشجى وأروع ما كتب في الأدب العالمى .

وفي رواية « أباء وأبناء » التي تلتها يصف لنا تورجنيف الصراع بين جيلين مختلفين من الأجيال الروسية ، جيل سنة ١٨٤٠ وجيل سنة ١٨٦٠ ويمثل هذا الجيل الأخير شخصية بازاروف وهي من أقوى الشخصيات التي أوجدها تورجنيف ، وهو فوضوى متطرف خارج على التقاليد والقيم السائدة ، ويبدو لنا أنه كلف بالهدم والتحطيم ولكننا قد نلمح وراء صراحته وتهاتفه الساخر أثر العواطف المكظومة ، وهي تعد من خير رواياته من الناحية الفنية ، فقد صور فيها النزعات

السياسية والاجتماعية السائدة في عصره تصويراً صادقاً مع مراعاة الأصول الفنية والتزام موقف الحياء .
وفد أثارت هذه الرواية زوبعة من النقد الشديد الجارح سواء من فريق المحافظين أو من جماعة الثائرين ، فالمحافظون اتهموا تورجنيف بأنه أكبر من شأن العدوى الثائر بازاروف وارتمى عند قدميه ، أما حزب الثائرين فقد اعتقدوا أنه قلل من شأنه واستهان بأمره ، والواقع أن الشيع المتصارعة في روسيا كانت شديدة التعصب لآرائها ، وتعد من يخالفها أدنى مخالفة عدواً لها ، منشقاً عليها ، ولم يكن التصوير الفني التزيه يرضى أى طرف من الأطراف المتنازعة ، فإذا صور عديمياً فيلزم أن يجعل منه بطلا خالص البطولة؛ ليرضى الحزب الثائر أو يجعل منه وغداً زنباً ليرضى جماعة المحافظين ، أما الذين كانوا يعرفون الثائرين عن قرب مثل دستوفسكى فقد ذهبوا إلى أن طراز الشخصية الذى وصفه تورجنيف في روايته لا وجود له على الإطلاق ، ولما كان تورجنيف قد أقام فترة طويلة في خارج روسيا فقد نصحه دستوفسكى ساخراً بقوله أن عليه أن يستحضر مقرباً ليرى به الأحوال في روسيا على حقيقتها ، وقد حز هذا النقد في نفس تورجنيف الحساسة ، حتى اتوى حيناً من الزمن أن يمتنع عن موالة التأليف ، ووصف لنا حالة الضيق والملل التى استولت عليه في قصيدته من الشعر المنشور التى جعل عنوانها « كفى » وبدا له أن الحياة خالية من كل ما يثير الاهتمام ويبعث على حب الاستطلاع . ومن أقواله في تلك القصيدة « أن أشد ما يثير الرهبة هو أنه لا شئ في الحياة يثير الرهبة » وهذه الكلمة الموجزة تلخص حالة الإعياء الداخلى ، ونوبة التشاؤم التى استولت على نفس تورجنيف في تلك الفترة وربما كان من أسبابها التى يمكن أن تضاف إلى فرط تأثره من حملات النقد التى وجهت إليه ، علاقته الغرامية بالمغنية المشهورة مدام فياردو جارسيا ، وقد لقى لأول مرة في بتروغراد وهو في مطالع شبابه وظل أسير حبها ، وصرع هواها

طوال حياته ، وكان هذا الحب الأفلاطونى من جانب واحد ، ومن أجل القرب من هذه الحبيبة قضى تورجنيف سنوات طويلة متنقلاً بين ألمانيا وفرنسا .
وقد استفاق تورجنيف من الغاشية التى آلمت نفسه بعد ظهور رواية « آباء وأبناء » وعاد إلى التأليف وكتب روايتيه المشهورتين « دخان » و « الثرى العذراء » والذى يسترعى النظر في هاتين الروايتين ما يتضمنانه من نقد شديد لبلاده ، فهو بوصفه من أنصار الاتجاه إلى الغرب كان يمت الحكم المستبد السائد في روسيا وكسل الشعب الروسى ، وتقاعده وصبره على الهوان والضميم وإفراط الروسين في الشراب ، وقد وصف لنا تورجنيف حالة المارد الروسى ، وهو يفرك عينيه ليتأهب للوثبة ويثور ثورته المعروفة .

وفي الفترة الأخيرة من حياته الممتدة بين سنة ١٨٧٨ وسنة ١٨٨٢ بدأ يكتب في أوقات متقطعة هذه المجموعة من الخواطر والتأملات والصور والانطباعات ووصف المشاهد والشخصيات التى تجلت فيها قدرته الفنية ونزعاته الفكرية واتجاهاته الفلسفية ، وقد ظهرت طلائع هذه الأفكار في مختلف رواياته ، ومواقف حياته ولكنه في المرحلة الأخيرة من عمره حاول أن يجمع أشاتها ، وينظم عقدها ، ويبيدها توضيحاً وتركيزاً في هذه الأشعار المنشورة التى تعد في إيجازها الحلاب وتأملاتها العميقة من خير ما أخرجه الأدب العالمى .

ولكل كاتب كبير وشاعر من الطراز الأول فلسفة خاصة أو نظرة عامة للحياة والكون تتخلل كتبه وتطالعك من وراء آثاره المنوعة وآرائه المختلفة ، فهل كان لتورجنيف فلسفة من هذا القبيل ؟

يروى لنا أندريه موروا في كتابه القيم عن تورجنيف أن إحدى السيدات كتبت إليه يوماً تحبره أن ابنها قد نوى إعداد رسالة عن فلسفته ، وأنها تريد بعض نصائحه ، فحار تورجنيف في أمره ، فهو كان يعتقد أنه ليس له فلسفة ، وكان يرى أن الفنان مشاهد قبل كل

شيء ، وأن الفنان الذى يمتزج بالمشهد يلغى وظيفته حيناً من الزمن باعتباره فناً ، وأنه قد يستطيع فى أعقاب ذلك أن يستعيد فى الهدوء العواطف التى اختلجت بنفسه أثناء العمل حتى تصبح له مادة فنية ، وكان تورجنيف يعتقد أن الصراع من أجل الأفكار المخردة ينطوى على خطر للكاتب ، وهو يحدثنا عن نفسه وطريقته قائلاً « عندما لا يكون أمامى صور معينة ينتشر على الأمر واقع فى حيص بيص ولا أدرى أين أتجه ، ويبدو لى دائماً أن من الممكن تأكيد الفكرة التى تعارض فكرتى بأدلة لا تقل قوة عن الأدلة التى أقدمها ، ولكن حينما أتحدث عن الأنف الأحمر أو الذقن الأبيض فإن الأنف فى هذه الحالة يكون أحمر اللون والذقن أبيض اللون ولا يمكن أن ينقض ذلك » .

ويقول موروا « إن أساس كراهة تورجنيف للأفكار هو فزعه من الجدل وخوفه من الإغراق فى الأحاديث الفلسفية التى كان شديد الكلف بها فى مطالع شبابه واعتقاد بأن ذلك لا طائل وراءه ، وأن الناس لا تعيش على هذا النمط ، وأن المهم هو الكائنات البشرية بأنوفهم الحمر وأذقائهم البيض وقبضات أكفهم ، وأوجاعهم وتهداتهم ، وتجوالم فى الريف وما يمارسونه من مختلف الأعمال .

وقد أجاب تورجنيف السيدة التى كتبت إليه قائلاً « سأقول عن نفسى بصورة موجزة إننى واقعى قبل كل شيء يحفل بالحقيقة الحية للوجه الإنسانى ، وإننى لا أعبأ فتيلاً بكل ما هو فوق الطبيعة ، ولا أعتقد بالمطلقات والنظم المذهبية وأحب الحرية أكثر من حجب لأى شيء آخر فى الدنيا وفى حدود تقديرى أقول إننى شديد التأثر بالعظمة وكل ما هو إنسانى حبيب لى نفسى والتعصب للسلافين وما لى ذلك من ضروب التعصب بعيد عن طبيعتى » .

وقد كان تورجنيف أميناً صادقاً فى هذه الوثيقة القيمة التى كشف لنا فيها بإيجاز الكثير من خفايا نفسه

ومعدن شخصيته ، وسيتبين القارئ أثر الحزن الصامت العميق الذى يطالعنا من وراء أشعاره المنشورة ، وقد كان الشعور بالسأم والشك فى قيمة المساعى الإنسانية يقوى فى نفس تورجنيف كلما تقدمت به السن واستفاضت تجاربه ، ولكن نظرته إلى الحياة بوجه عام لا تسمح لنا بأن ندخله فى زمرة المتشائمين ، فقد كان شديد الإيمان بالحب والخير والجمال ، وقد كان عقله يضرب فى بيداء الشكوك ويحاول رفع النقاب عن الأسرار الخفية ، ولكن قلبه مع ذلك كان يؤمن بالإنسان ، ويكف من عادة الشك ، ويبدو هذا الصراع بين اتجاهات العقل وإحجامات القلب فى الكثير من روايات تورجنيف وقصصه وأقصوصاته ، ولكنه يبدو بصورة أوضح - وربما كانت أعنف - فى أشعاره المنشورة .

وقد كتب تورجنيف خواطره الشعرية فى السنوات الأخيرة من حياته كما قدمت ، وقد أصيب خلالها بالعلة الخطيرة التى كانت سبب وفاته وهى سرطان النخاع الشوكى ، فغير غريب أن تطالع صور الموت وهو يصارع هذا الداء الخطير ، ولم تعصف المعركة التى كانت ناشبة بين غرائزه السليمة وبين الملل من الحياة الذى كان باعته المرض باتزان عقله وسباحة نفسه وحبه للخير ، وقد كتب فيما كتبه فى هذه الفترة يقول « لقد لحقنى الشيوخوخة وعلا لى الكبر وفقد كل ما حولى وكل ما فى نفسى لمعانه وبهجته ، والضوء الذى كان يشع من القلب ويظهر الحياة فى لونها وانطلاقها وحركتها ، هذا الضوء قد كاد ينطفئ فى نفسى ، إنه فى سبيله إلى الخمود تحت غشاء الرماد الذى تكاثف » .

ولكن هذا الداء الويل الذى نغص عليه بوجه خاص السنتين الأخيرتين من حياته وجعله يتحمل كل ما فى طاقة البشر احتماله لم يغير من طباعه ، قال فى إحدى المناسبات لصديقه بأفلوفسكى وقد اشتدت به الآلام المبرحة « لست آسى على الموت ، فقد أخذت بنصيبى من متع الحياة ، وقد أنجزت أعمالاً كثيرة ،

ونجحت ووقفت ، وقد أحبت الناس وهم كذلك
أحبوني ، وقد بلغت الشيخوخة ، وأتيح لي من السعادة
ما يمكن أن يتاح للبشر ، والكثيرون لم يقدر لهم ذلك ،
وليس حسناً أن يموت الإنسان قبل أن يأتي وقته ،
ولكن بالقياس إلى ، قد حان الوقت .

وقد مات تورجنيف يوم ٣ سبتمبر سنة ١٨٨٣
في بوجيفال بفرنسا ونقل رفاته إلى روسيا ودفن في
مقبرة فولكوف في بطرسبرج ، إلى جانب صديقه الناقد
الشهير بلنسكي .

وقد قال عنه الشاعر الأمريكي الكبير ولت
ويتمان «ترجنيف النبيل الحزين» وهو خير تحديد
لشخصيته كما تبدو لنا في رواياته وقصصه وأقصوصاته
وبخاصة في أشعاره المنشورة .

وكان تورجنيف يرى من السخف أن نعزو طيبة
القلب إلى الطيبة ، فالطبيعة في رأيه ليست خبرة
ولا شريعة ، وإنما هي غير مكترثة ، وقد عبر عن هذا
الشعور في خاطره التي أسماها «الطبيعة» وفيها يقول :
«أريت فيما يرى النائم أني جئت معبداً تحت الأرض
ضخماً هائلاً له سقف مقبب سامق ، وكان غاصاً
بأضواء أرضية راتبة

وفي بهرة المعبد كانت تجلس امرأة فخمة رائعة
عليها ثوب أخضر اللون فضفاض ، وقد اعتمد رأسها
على يدها ، وبدا أنها مستغرقة في تفكير عميق .
وأدركت في التو واللحظة أن هذه المرأة هي
الطبيعة نفسها ، وأصابني رعدة من فرط الإجلال سرت
إلى أعماق روحي .

ودنوت من هذه الصورة الجاثمة ، وانحنيت
إكباراً ، وخاطبتها قائلاً «يا أمتنا جميعاً فم تفكرين ؟
هل تفكرين في مصائر الإنسانية ؟ أو تفكرين كيف
يظفر الإنسان بما في الإمكان من الكمال والسعادة ؟
فأثارت إلى المرأة عينها الرهيبتين في بطاء وأناة ،
وتحركت شفتها ، وقرع سمعي صوت رنان له صليل

الحديد يقول «إني أفكر كيف أمنح ساق البرغوث
قوة أوفر ؛ ليكون أقدر على الفرار من أعدائه ، والتوازن
عنده بين الدفاع والهجوم مختل ، ويجب أن يراعى
ويحفظ .

فتعثرت في الجواب وقلت «ماذا ؟ وما هذا الذي
تفكرين فيه ؟ أو لسنا نحن بني الإنسان أولادك
المقربين ؟»

فزوت وجهها قليلاً وقالت «جميع المخلوقات
أبنائي ، وعنايتي بالجميع واحدة ، وأنا أأيدهم بأسرهم»
فلجلجت قائلاً «ولكن الحق ... والعقل ...
والعدالة ...»

فقلت في صوتها المجلجل «هذه كلمات بني
الإنسان ، وأنا لا أعرف الحق ولا الباطل ، وليس
العقل ناموساً لي ، وما هي العدالة ؟

«لقد وهبتك الحياة ، وسأستردها ، وأمنحها الغير ،
ديداً كانوا أو آدميين ... لا يعينني ... فانظر
في خلال ذلك لنفسك ، ولا تقف في طريقي !» .
وهمت بمراجعتها ، ولكن الأرض اهتزت
وأرسلت أنة مولولة .
فاتتهت من النوم .

وقد شاهد تورجنيف في طفولته معركة بين حية
وضفدعة سامة ، وكون من هذا المنظر الذي لم يرح
مخيلته ، أولى أفكاره عن قسوة المعارك الناشئة في ميادين
الطبيعة الواسعة ، ولم تستطع تجارب الحياة أن تزيل من
نفسه هذه الفكرة ، وكان الكون في شموله يبدو له وقد
سيطرت عليه قوى ضخمة غير عابئة بالإنسان ولا معنية
بشؤونه ، وبما نسميه الخير أو الشر أو العدالة أو السعادة ،
وعند تورجنيف أن الكائنات البشرية ليست أعز على
الطبيعة وأنفس في نظرها قيمة من المال وسائر
الحشرات .

وفي إحدى خاطراته من الشعر المنشور يتصور
حادثة بين جبلين ، وهما جبل يونجفراو وجبل فينسترا

هورن - وهما من جبال سويسرة - ويقول تورجنيف في هذه الخاطرة «أعلى قمم جبال الألب ... وهى سلسلة من التفائف ... وهى صميم الجبال !

وفوق هذه الجبال سماء خضراء شاحبة صافية صامته والصقيع الصلب القاسى والجليد العسير المتألىء وتبرز من تحت هذه الثلوج المترامية القمم الجرد العابسة والصخور الصياخيد التى ما تنفك تعصف بها هوج الرياح .

وجبلان شامخان ضخمان على جانبي الأفق ، وهما يونجفراو وفينستراهورن .

ويتحدث يونجفراو إلى جاره العملاق قائلا « ماذا عندك من طريف الأخبار ؟ إنك تستطيع أن ترى من مكانك أكثر مما أرى ، فإذا يحدث فى تلك السهول والوهاد ؟

ومرت عدة آلاف من السنين كأنها لحظة مفردة قبل أن يهدر فينستراهورن قائلا « سبب جون مثقلات تغطى سطح الأرض ... انتظر قليلا !

ومرت آلاف أخرى من السنين كأنها مجرد لحظة فأعاد يونجفراو السؤال قائلا « حسن ، والآن ؟ » فأجاب فينستراهورن « الآن أستطيع أن أرى ، فهناك فى الوهاد لم يتغير شئ ، كتلة من الذرات الضئيلة الكثيرة الألوان ، وأمواه زرقاء ، وغابات سوداء ، وأكوام من الأحجار الرمادية اللون مكسد بعضها فوق البعض ، وعلى مقربة منها ترحف هذه الحشرات الصغيرة ، هذه المخلوقات ذوات الساقين التى لم تحاول أن تدنسك أو تدنسنى .

« أتقصد الناس ؟ »

« نعم ، الناس »

ومرت آلاف السنين كلمح البرق وكأنها لحظة واحدة :

فقال يونجفراو « ماذا تستطيع أن ترى الآن ؟ » فهدر فينستراهورن قائلا « يبدو المنظر فى السفوح والوهاد أصفى وأوضح ، لقد ارتدت المياه وصارت الغابات أشد هزالا . وطويت بعد ذلك آلاف السنين وانقضت كأنها لحظة .

فسأل يونجفراو قائلا « ماذا ترى الآن ؟ » فأجاب فينستراهورن « حولنا وعلى مقربة منا يبدو أصفى وأنقى ، ولكن فى الأودية على مسافة بعيدة لا تزال هناك بقع وشئ يتحرك » .

وبعد مرور بضعة آلاف أخرى من السنين أعاد يونجفراو السؤال قائلا « والآن ؟ » فأجاب فينستراهورن « كل شئ على ما يرام ، وقد عمت النظافة كل مكان وكل شئ الآن أبيض اللون ناصعه ، وليس هناك سوى الجليد ، الجليد المتماسك والصقيع وقد تجمد كل شئ ، وأظل العالم الهدوء فلا تسمع فيه لاغية » .

فقال يونجفراو « حسن ، لقد تحدثنا بما فيه الكفاية يارقيقى المحرم ، وقد حان الوقت لننام هنية » . « لقد أصبت ، وحقاً قد حان الوقت » .

ونام الجبلان الشامخان ، ونامت السماء الخضراء الصافية فوق الأرض التى لاذت بالصمت الأبدى . ويقول موروا فى تعليقه على هذه الخاطرة الشعرية « لقد كانت أقوى العواطف المسيطرة على تورجنيف ، هى عاطفة فناء الإنسان تلقاء عظمة الأشياء ، وإذا كنا قد ابتلينا بضعف تأمل اللانهاية وقياسها ، فإن كل جهد يبدو لنا عبثاً ، فنحن نشقى ولكن إلى أين نذهب ؟ إلى الموت وهو نفسه سيصير شيئاً ضئيلاً » .

وفى هذه الخاطرة عن الموت يعبر تورجنيف عن هذا الشعور وعنوانها « ما الذى سأفكر فيه » . « ما الذى سأفكر فيه حينما يدركنى الموت إذا كنت فى حالة أستطيع معها التفكير فى أى شئ ؟ »

فهل أفكر كيف ضاع العمر سدى؟ وكيف لم أقد من حياتي شيئاً ، وكيف استولى على النوم خلالها وأمضيت زمني حالماً وأخفقت في تذوق هباتها ؟
ما هذا ؟ وهل حان الموت ؟ أهكذا سريعاً ؟ هذا محال ! حقيقة أنى لم أجد متسعاً من الوقت لعمل أى شيء ... لقد كنت أتأهب للعمل !
وهل أستعيد ذكرى الماضى وأطيل التفكير فى الدقائق القليلة المشرقات التى عشتها ؟ وهل تطالعنى الصور والوجوه العزيزة على ؟

وهل تلوح لى الأعمال السيئة التى اقترفتها - وهل يغزو روحي الألم الحارق ، ألم الندم المتأخر ؟
وهل يتجه تفكيرى إلى ما ينتظرنى وراء القبر ..
وهل ينتظرنى هناك شيء حقيقة ؟

كلا ... يبدو لى أننى سوف لا أحاول التفكير فى شيء - وسأحمل نفسى على التلهى بشيء تافه لأبعد عقلى عن التفكير فى الظلمة المنيرة التى تسدل سوادها أمامى .

لقد رأيت مرة رجلاً يشكو فى ساعته الأخيرة شكوى متصلة لأنهم لم يقدموا له بندقاً ليقتضمه ...
وكل ما فى الأمر أن فى أعماق عينيه وهما يلجان فى الذبول والانطفاء كان يبدو شيء يخفق ويرتعش كجناح كسير لطائر جرح جرحاً مميتاً «

وتبدو كراهة ترجيف للموت وفرط حبه للحياة وتعلقه بها فى خاطرته عن « نهاية العالم » وهو يقول فيها :

خيل إلى أننى فى مكان منزل فى روسيا وفى منزل ريفى بسيط ، وكنت فى حجرة واسعة منخفضة لها ثلاث نوافذ ، وحيطانها بيضاء وليس بها أثاث ، وأمام المنزل سهل أجرد ينبسط فى انحدار تدريجى إلى مسافة بعيدة تظله سماء ربداء رتيبة ، كأنها ستارة مرخاة .

ولم أكن وحيداً ، كان معى فى الحجرة ما يقرب من عشرة أشخاص ، وكانوا قوماً عاديين يرتدون

الملابس المألوفة ، ويروحون ويحيثون فى الحجرة فى وقار ، حتى كأنهم يختلسون الخطوات ، وكانوا يتجنب بعضهم بعضاً ، وبرغم ذلك كانوا يتبادلون النظرات القلقة .

ولم يكن أحد منا يدرى لماذا هو فى هذه الحجرة ، وما نوع هؤلاء الناس المجتمعين معه ، وكان يبدو لهم والاكتئاب على كل وجه ، وكان كل واحد من الحاضرين يقترب من النوافذ وينظر بانتباه كأنه ينتظر شيئاً من الخارج ثم يستأنف ذرعه للحجرة ذهاباً وإياباً .

وكان يتحرك بيننا غلام صغير ، وكان يصيح من الحين إلى الحين بصوت رتيب رقيق قائلاً « يا أبى إنى خائف » وكانت صيحته تجعل الألم يحز فى نفسى حتى استولى على الخوف مثله ، ولكن الخوف مم ؟ لم أكن أدرى ، وغاية ما فى الأمر أنى كنت أشعر بأن كارثة رهيبية تقترب منا شيئاً فشيئاً .

ومن الحين إلى الحين كان يصرخ الغلام ، فلو أن فى استطاعة الإنسان الإفلات ! لقد كان جو المكان قابضاً يبعث على الحزن والكآبة ويلقى على كاهل الإنسان عبئاً ثقيلاً .. ولكن لم يكن هناك وسيلة للإفلات .

وكانت السماء كأنها الأكفان ، وقد توقف هبوب الريح .. وبدا كأن الهواء قضى نحبه .

وفجأة جرى الغلام إلى النافذة ، وصرخ بالصوت المتألم الشاكر المعهود قائلاً « انظروا لقد أنهارت الأرض ! »

« ماذا ؟ أنهارت الأرض ؟ لقد كان ذلك حقيقة ، فنذ لحظات كان أمام المنزل سهل ، ولكن الآن يقوم المنزل على قمة جبل رهيب ، وقد هوى الأفق واختفى وتعلق أمام باب المنزل منحدر رأسى ، كأن الأرض قد تصدعت وتمزقت أوصالها .

فاحتشدنا جميعاً حول النافذة، وقد حول الخوف قلوبنا إلى حواصب من الثلج ، وهمس الواقف إلى جوارى قائلا « ها هو .. ها هو ! »

وهناك عند طرف الأرض القصي أخذ شيء يتحرك ، أكوام صغيرة مستديرة بدأت تعلو وتهبط ، فأدركنا جميعاً في التو واللحظة أن ذلك هو البحر ، وأنه يوشك أن يغرقنا جميعاً ، ولكن كيف ينمو ويرتفع إلى قمة الهاوية ؟

ولكنه مع ذلك أخذ ينمو ، نمواً عظيماً ، ولم تلبث من بعد تلال منفصلة متدافعة .. وإنما كانت هناك موجة مستمرة عاتية ضخمة تغطي الأفق جميعه .

وكانت هذه الموجة متقدمة نحونا بسرعة إلينا ، وكانت تحملها زوبعة ثلجية، وتدور حول نفسها في ظلام مطبق ، وكان كل ما حولنا يهتز ، وكان ينبعث من هذه الكتلة المندفعة أصوات كقصف الرعد وصليل الحديد ، كأنها لها ألف حلق .

فما أشد دويها ، وما أروع هديرها ! لقد كانت الأرض تولول ولولة الجزع !

وعاود الغلام النشيج وحاولت أن أتعلق برفقائي ولكننا كنا جميعاً قد غلبنا على أمرنا ودفنا وأغرقنا واكتسحتنا الموجة الثلجية الهادرة السوداء الخالكة السود .

لقد احتوى الظلام كل شيء .. الظلام الأبدي . واستيقظت من النوم وأنا لا أكاد ألتقط أنفاسي « وفي خاطرة عنوانها « الحشرة » يصور تسلل الموت في صورة أخرى فيقول :

« رأيت في الحلم أننا كنا عشرين شخصاً جالسين في حجرة رحبة مفتوحة النوافذ .

وكان بيننا نساء وأطفال وبعض المتقدمين في السن ... وكنا جميعاً نتحدث عن أشياء في غاية الأهمية ، وكان حديثنا صخاباً وغير واضح .

وفجأة انطلقت في الحجرة حشرة طوها قرابة نصف بوصة، محدثة صوتاً مثل قعقة السلاح، وأخذت تدور وتتابع الدوران واستقرت أخيراً فوق الحائط .

كانت تبدو مثل ذبابة أو زنبور ، فقد كان ظهرها أدكن قدراً ، وكان لون جناحيها الحشنيين المنبسطين مثل لون ظهرها ، وكانت ساقاها الممتدتان كثيرتي الشعر وكان رأسها كبيراً كرية الشكل مثل رأس اليعسوب ، وكان رأسها وساقاها حمر اللون كأنها قد نغمست في الدماء .

وأخذت هذه الحشرة تدبر رأسها إلى أعلى وإلى أسفل ويميناً وشمالاً بغير انقطاع ، وفي الوقت نفسه حركت ساقها ، وفجأة كانت تنطلق من الحائط وتدور حول الحجرة في جلبة، ثم تعاود الاستقرار على الحائط ، وهكذا استمرت تتابع هذه الحركات الخفيفة البغيضة دون أن تبرح المكان .

وقد أثارت الاشمزاز والخوف بل الهلع في نفوسنا جميعاً ، فلم ير أحد منّا قط شيئاً مثلها من قبل ، وصاح كل من في الحجرة « تعقبوا هذه الحشرة وأبعدوها ! » ولوح كل إنسان بمنديله من مكانه الأمين لأن أحداً لم يجترئ على الاقتراب منها ، وحينما كانت الحشرة تعاود الانطلاق كان كل من في الحجرة يتراجعون إلى الوراء على غير إرادتهم .

وكان بين رفقتنا في الحجرة شاب شاحب الوجه ينظر إلينا جميعاً وقد عرته حيرة ، وهز كتفيه وابتسم ، ولم يستطع أن يفهم ماذا أصابنا ولماذا كنا جميعاً قد استفزنا الخوف وعننا الاضطراب ، فهو نفسه لم ير حشرة ولم يصل إلى سمنه صخب جناحيها .

وبغنة بدا أن الحشرة أخذت ترنق النظر إليه ، وانطلقت نحوه ، وتعلقت برأسه ، ولسعته في جبهته فوق عينيه ، فأرسل الشاب صرخة واهية وسقط ميتاً .. وفوراً انطلقت الحشرة الرهيبة مولية .

وأركت أن الحب أقوى من الموت أو من الخوف
من الموت ، وبالحب تمالك الحياة ، وتسير في طريق
التقدم .

وتورجنيف برغم أنه قضى شطراً كبيراً من حياته
في خارج روسيا وكان صديقاً للكثيرين من كبار
الكتاب الفرنسيين الذين عاصروه مثل فلوير وزولا
وألونس دوديه وموباسان وبرغم أنه كان يرى أن على
روسيا أن تولى وجهها نحو الغرب فإنه ظل مع ذلك
شديد التعلق بلغة الروسية عظيم الإعجاب بها ، وقد
ناجاها في إحدى خاطراته وعنوانها « اللغة الروسية »
بقوله :

« في أيام الشك والأيام التي يستبد فيها بنفسى القلق
والخوف على مصير بلادي - أنت الوحيدة معيني
والدعامة التي أستند إليها .

أيها اللغة الروسية العظيمة الجبارة الصادقة الحرة !
لولاك لاستولى على اليأس حيناً أنظر إلى كل
ما هو حادث في وطني ، ولكن مثل هذه اللغة لم تمنح
إلا لشعب عظيم .

وقد تناول تورجنيف في أشعاره المنشورة بعض
الأحداث ذوات الدلالة التي عاصرها ، مثل حادثة
اعتداء الفتاة فيرا زاسولتس على الجنرال ترييوف
رئيس شرطة بطرسبرج ، وأسمى تورجنيف هذه
الحادثة « المدخل » وهي من الخواطر التي لم تنشر
في حياته :

« أرى بناء ضخماً ، وفي حائطه الأمامي باب ضيق
موروب ، وقد انتشرت خلف الباب سحابة مظلمة ،
وأمام المدخل العالي فتاة ، فتاة روسية .

وكانت السحابة الكثيفة تبعث قشعريرة باردة
وبطيئة ، وانبعث صوت أجش محمولا على تيار الهواء
الشديد البرودة من أعماق المبنى .

وأدركنا حينئذ حقيقة الضيف الذي آويناه .

ولكن تورجنيف مع ذلك كان يؤمن بالحب ويراه
أقوى من الموت ، وقد عبر عن ذلك في خاطرته
الشعرية التي جعل عنوانها « العصفور » وفيها يقول :

كنت عائداً من الصيد ، وسرت في طريق
بالحديقة تحف به الأشجار من جانبيه ، وكان كلبي
يعدو أمامي .

قصر الكلب خطواته ، وأخذ يتسلل كأنه يقفو
أثراً .

فأرسلت النظر إلى امتداد الطريق ، فلمحت
عصفوراً صغيراً تعلو منقاره ورأسه صفرة ، وكان قد
هوى من العش (كانت الرياح تعصف بأشجار
البيتولا القائمة على جانبي الطريق عصفواً شديداً) وأخذ
يرفرف بجناحين لم يستكمل بعد نموها ، وقد عجز عن
الحركة .

وبينما كان الكلب يتقدم منه في بطء سقط بغتة
عصفور هرم من شجرة قريبة ، وكان يرتجف هلعاً
ويزفر زقزقة المستئثس المتوسل ، وألقى بنفسه مرتين
نحو فكي الكلب وأنيابه اللامعة .

لقد وثب من شاقق لينقذ فرخه ، وكان ينتفض
فرقاً ولكنه ألقى بنفسه من مأمته برغم خوفه .

ولقد كان الكلب يبدو للعصفور وحشاً هائلاً
الأنحاء ، ولكنه مع ذلك لم يستطع البقاء في الأعالي واتقاء
الخطر ، وقد دفعت به قوة غلبة أقوى من إرادته .

توقف الكلب ولم يأت بحركة ثم عاد أدراجه ، لقد
رأى فهو كذلك شواهد تلك القدرة .

فأسرعت ودعوت الكلب الداهل المتعجب ،
وعدت مفعم القلب بالاجلال ، نعم لا تسخر من ذلك ،
لقد شعرت باحترام لهذا العصفور البطل الصغير لما فيه
من دوافع الحب .

« أيتها الراغبة في عبور هذا الباب أتعرفين ما ينتظرك ؟ »

فأجابت الفتاة « أعرف »

« البرد والجوع والكرهه والاستهزاء والاحتقار والإهانة والسجن والمرض والموت نفسه »
« أعرف ذلك »

« الإبعاد والعزلة التي لا أنيس بها ؟ »

« أعرف ذلك ، ومستعدة لاحتماله ، وأستطيع أن أحتمل الشقاء والعذاب والصدمات »
« لا من أعدائك فحسب ، وإنما من أسرتك وأصدقائك ؟ »

« نعم . . . من هؤلاء كذلك »

« حسن . . . أنت على استعداد للتضحية بنفسك ؟ »
« نعم »

« لتضحى بنفسك مع اغفال اسمك ؟ وستهلكين ولا يعلم أحد ولا يدري إنسان ذكراك ليحترمها »
« لست في حاجة إلى الاعتراف بالجميل أو العطف ولست في حاجة إلى اسم »

« هل أنت مستعدة لارتكاب جريمة ؟ »

« فأحنت الفتاة رأسها »

« أنا مستعدة كذلك لذلك »

وتوقف الصوت قبل أن يعود إلى توجيه الأسئلة .
واستأنف الصوت السؤال قائلاً « أتعلمين أنك قد تفقدن الإيمان بما تعتقدينه الآن ، وأنت قد تفكرين فيما بعد أنك قد أخطأت وأضعت حياتك سدى ؟ »
« إنني أعرف ذلك كذلك ، وبرغم ذلك أريد الدخول »

« ادخلي ! »

فعبرت الفتاة الباب ، وأرخت ستارة كثيفة خلفها .

وانبعث صوت كريحه من أحد الواقفين إلى الورا
يقول « حمقاء »

وسمع صوت آخر يقول « قديسة » !

وفي خاطرة عنوانها « الراهب » يبين لنا تورجنيف موقفه من الدين والعلاقة بين الفن والدين :

« لقد عرفت راهباً كان ناسكاً وقديساً ، وكان يعيش على ما يجده للصلاة من وقع جميل في نفسه ، وبلغ من حبه للعبادة وإقامة الصلاة أنه كان يقف طويلاً فوق أرضية الكنيسة الباردة حتى ورمت ساقاه من مفصل الركبتين إلى القدمين وتصلبتا وصارتا مثل العمود ، ولكنه لم يشعر بذلك وظل يقف ويتابع الصلاة والتجهد .

لقد فهمته ، وربما غبطته ، ولكن ليفهمني هو كذلك ولا يحكم على بالإدانة — أنا الذي لم يصل إلى مثل هذه المتعة .

لقد نجح في اخاد أنانيته الكريهة ، ولكن اخفاق في العبادة ليس نتيجة من نتائج حب الذات .

فربما كانت أنانيتي أشد مضايقة لي وأبغض لي ، وربما ضقت بها ذرعاً أكثر مما ضاق هو بأنانيته حتى ملها وتغلب عليها .

لقد وجد شيئاً يستطيع فيه نسيان نفسه . . . وكذلك أنا وجدت ما أنسى فيه نفسي ، ولكن ليس على الدوام .

إنه لا يكذب . . . وأؤكد أنني كذلك لست بكاذب . »

وفي يناير سنة ١٨٧٨ مات الأديب الروسي الشهير نيكرا سوف وكان من أخلص أصدقاء تورجنيف ثم افترقا عدوين ، وظلت خصومتها سنوات طويلة وعلم تورجنيف بمرض صديقه القديم فذهب ليعوده ، ويصف لنا ماجرشاك هذه الزيارة قائلاً « لم يستمر لقائهما أكثر من دقيقة ، وقد وقف تورجنيف بباب

حجرة نيكراسوف وقوراً فارغ القامة وقبعته في يده ، ونظر إلى نيكراسوف وهو جالس على مقعده هامداً عديم الحركة ، وهاله ما طراً على مظهره من التغير الفظيع ، ورفع نيكراسوف يده النحيفة الهزيلة في إشارة وداع لتورجنيف كأنه كان يريد أن يعبر عن عجزه عن التحدث معه ، فرد تورجنيف التحية والدموع تكاد تنفجر من عينيه ، وترك الحجرة دون أن ينطق بكلمة ، وفي أبريل من السنة نفسها كتب الخاطرة التالية وعنوانها « اللقاء الأخير » :

كنا قديماً صديقين حميمين متواصلين . . ولكن جاءت ساعة نحس فافترقنا عدوين ، ومرت سنون عدة . . . وقدمت بعدها المدينة التي يقيم بها فعلمت بأنه مريض لا يرجى وأنه يود رؤيتي .

فسرت إليه ، ودخلت حجرته ، والتقت العينان ، فلم أكد أعرفه ، فيا لله ! ماذا فعل به المرض !

كان حائل اللون قد تغضن وجهه ، وتساقط شعر رأسه ، وخطط المشيب لحيته الخفيفة ، واستوى جالساً وليس عليه سوى غلالة قد شققها عامداً لأنه كان لا يطيق أخف الثياب .

وبسط إلى يده هزة عنيفة فهالني نخفها ، وتبدت لي كأنها مقروضة متأكلة ، وبذل جهداً ليمس بيضع كلمات غير جلية ، من يدري هل كانت كلمات لوم وعتاب أو عبارات استقبال وترحاب !

كان صدره الهزيل يضطرب ، وانبجست من عينيه الملتعنتين دمعتان عصيتان من دموع الألم حتى غشيتا إنسان عينه المتضائل .

فجزعت وخانني العزم . . . وجلست على كرسي إلى جانبه ، وأطرقت بعيني على الرغم مني إزاء هذا المنظر المرعب البشع ، ومددت أنا كذلك يدي

لقد خيل لي أنه ليست يده القابضة على يدي . وقد تراءى لي أن امرأة طويلة القامة بيضاء جالسة بيننا ، وأنها ملفوفة في طيلسان من فرع إلى قدم ، وأن عينها الغائرتين الشاحبتين شاخصتان إلى الفراغ ، وأن شفيتها الممتعتين اللتين تمان على الجفوة والصرامة لا ينبعث منهما صوت .

هذه المرأة ضمت يدينا . . . وقد وفقت بيننا توفيقاً أدياً

نعم . . . لقد أصلح ما بيننا الموت

ولم تخل خواطر تورجنيف علي تردده فيها بين الأمل واليأس واليقين والبشك من الفكاهة ، مثال ذلك خاطرته عن « المخبر الصحفي » وفيها يقول :

« كان الصديقان جالسين أمام المائدة يحترسان الشاي

وسمعا ضوضاء وجلبة في الشارع ، وتأوهات تبعث على الرثاء ولعنات شديدة قاسية وانفجار ضحكات الشماتة .

ونظر أحد الصديقين من النافذة وقال « إنهم يضربون أحد الناس » .

فسأل الآخر قاتلاً « من المضروب ؟ أهو مجرم ؟ أهو قاتل ؟ ومهما يكن من الأمر فإنه يجب ألا نسمح بهذه العقوبة غير القانونية ، لنذهب لمناصرته » .

« ولكن المضروب ليس قاتلاً »

« ليس قاتلاً ؟ إنه إذن لص ؟ هذا لا يهم لنذهب لإنقاذه من يد الجمهور » .

« إنه ليس لصاً » .

« ليس لصاً ؟ ربما كان صرافاً أو موظفاً من موظفي السكك الحديدية أو أحد المتعهدين الذين يعملون مع الجيش ، أو أحد أنصار الفن ، أو أحد المحامين أو أحد الناشرين الرجعيين ، أو أحد المصلحين الاجتماعيين ؟ . . ومهما يكن من الأمر لنذهب لمساعدته » .

« كلا . . . إن الذى يضربونه مخبر صحفى » .
« مخبر صحفى ؟ فى هذه الحالة دعنا نستكمل احتساء كوب الشاى أولاً » .

وقد كان ترجنيف شاعراً واقعياً يرى ما فى الحياة من جبال وخير ولكنه يعرف كذلك ما بها من شر وقبح ، وكما نجد فى مؤلفاته وصف الغابات الرفاقة والطيور الصداحة والغدر الرقاقة والوجوه الحسناء والطبائع الجميلة فكذلك تلقى فيها الأشرار والطبائع المسوخة والمشاهد البغيضة ، من قبيل ذلك وصفه « للأنانى » فى إحدى خاطراته الشعرية المنشورة :

« كان فيه كل المؤهلات التى تجعله نعمة لأسرته فقد ولد غنياً موفور الصحة ، وخلال حياته الطويلة لم يصب فى ثروته ولا فى صحته ، وفى الوقت نفسه لم يرتكب قط جريمة ، ولم يخرق قانون الأخلاق ، ولم يهف هفوة ، ولم تؤخذ عليه زلة لسان أو سقطة فى كل ما باشر من الأمور » .

« كان أميناً أمانة لا غبار عليها ! . . . وكان متكبراً لشعوره بأمانته . . . وبهذا الشعور كان يسحق كل إنسان . . . أسرته وأصدقائه وعارفيه .

كانت أمانته رأس ماله وكان يتقاضى عليها ربحاً باهظاً .

كانت هذه الأمانة تعطيه الحق فى أن يكون عديم الرحمة ، وأن يمتنع عن فعل الخير إلا ما أملت عليه أمانته وأباحه القانون . . . وقد كان عديم الرحمة ولم يفعل خيراً . . . لأن الخير الذى يملى علينا ليس خيراً أصلاً .

ولم يكن يحفل بأى إنسان إلا نفسه المثالية ، وكان يغضب من الناس غضباً صادقاً إذا قصرت حماسهم للاهتمام بنفسه عن حماسه .

وفى الوقت نفسه كان لا يعد نفسه « أنانياً » لأن حكمه على الأنانية والأنانيين كان شديداً بوجه خاص !

« فى ذات يوم رأى الكائن الأسمى أن يولم وليمة فاخرة فى قصره السماوى . ودعيت الفضائل جميعها ، الفضائل ليس غير . . ولم يحضر رجال . . فالدعوة كانت مقصورة على السيدات .

حضرت الكثيرات ، منهن الصغيرة الشأن ، ومنهن العظيمة المكانة ، وكانت الفضائل الصغيرة أجمل وأكثر مرحاً من كبريات الفضائل ، ولكن جميعهن

كان يبدو عليهن مظاهر الارتياح والغبطة ، وكن يتحدثن في أدب وبشاشة مما هو جدير بصديقات تجمع بينهن صلات القرابة والمعرفة .

ولحظ الكائن الأسمى أن هناك سيدتين فانتين فتقدم رب الدار من إحدى السيدتين ، وأعطاهما ذراعه وسار بها إلى السيدة الأخرى .

وقال مشيراً إلى السيدة الأولى « الإحسان » !
ثم قال مشيراً إلى السيدة الثانية « عرفان الجميل » !
فمرت الفضيلتين الدهشة وهتتا ، وعجبت كل منهما من أمر صاحبها ، فبدأ الخليفة - وقد مضى على ذلك زمان طويل - لم تلق إحداها الأخرى ، وكان هذا أول لقاء .

وفي خاطرة « العامل والرجل ذو اليدين البيضاء » يبدو تأثر تورجنيف الطيب القلب من سوء التقدير وإهدار القيم :

محاورة

العامل : لماذا جئت زاحفاً إلينا ؟ وماذا تريد ؟
إنك لست واحداً ، منا إليك عنا !
الرجل ذو اليدين البيضاء : ولكني أيها الأخ واحد منكم !

العامل : أهذا حق ؟ واحد منا ! بماذا تهرف ؟
انظر إلى يدي ! ألا ترى ما بهما من قدارة ؟ أن رائحة كريهة تنبعث منهما - ويداك بيضاوان ، ما هذه الرائحة التي تفوح منهما ؟

يمد ذو اليدين البيضاء يديه ويقول للعامل « شم يدي » .

العامل (وقد شم يديه) : شيء عجيب ، تفوح منهما رائحة الحديد .

الرجل ذو اليدين البيضاء : حقيقة أنهما تفوح منهما رائحة الحديد ، لقد حملت القيود في يدي ست سنوات .

العامل : ولم كان ذلك ؟

الرجل ذو اليدين البيضاء : لأنني كنت معنياً بما فيه الخير لك ، ولأنني كنت أريد لكم الحرية أيها الجهلة ثرت على الذين يضطهدونكم . . . ولذلك ألقوا بي في غيابة السجن .

العامل : ألقوا بك في غيابة السجن ؟ ولكن من سألك أن تثور ؟

خبرني عن ذلك !

بعد مضي عامين

(العامل نفسه يخاطب عاملاً آخر) .

- اسمع يا بطرس ! . . . أتذكر في الصيف قبل الصيف الأخير ذلك الرجل ذا اليدين البيضاء الذي تحدث معك ؟

العامل الآخر : نعم أذكره . . . ولماذا ؟

العامل الأول : يقولون إنه سيشتق اليوم - لقد صدر الأمر بذلك .

العامل الآخر : هل عاد إلى الثورة .

العامل الأول : نعم عاد إلى الثورة .

العامل الآخر : حسن ، استمع لي يا ديمتري !
أتستطيع الحصول على جزء من ذلك الحبل الذي سيشتق به ؟ إنهم يقولون إنه يجلب الحظ الحسن لمنزل الإنسان !
العامل الأول : أنت على الحق أيها الأخ بطرس ، هذه فكرة طيبة ! . .

وفي خاطرة عنوانها « الرباعيتان » يقول تورجنيف « كانت هناك مدينة قد أولع أهلها بالشعر ولعاً شديداً إلى حد أنهم كانوا إذا مضت بضعة أسابيع ولم تظهر قصيدة جيدة يعدون مثل هذا العقم الشعري كارثة عامة .

وفي مثل هذه المناسبات كانوا يرتدون ملابسهم القديمة ويغطون رؤوسهم بالتراب ويجمعون جماعات

في الميادين العامة ، ويدرفون الدموع ، ويبدون تدمرهم
الشديد من آلهة الشعر التي هجرتهم .

وفي أحد هذه الأيام البائسة ظهر الشاعر الشاب
يونيوس في أحد الميادين التي احتشد بها القوم المحزونون
وسرعان ما اعتلى المنصة المعدة لهذا الغرض وأتى
بإشارات مفادها أنه يريد القاء قصيدة .

فأمر الضابط الرومانيون المنوطون بالمحافظة على
النظام بإشارة منهم الجمهور بالاصغاء ، وفوراً ألزم
الجمهور الصمت انتظاراً لسماع الشعر .

وبدأ يونيوس بصوت عال لم يخل من التثغر يقول :
أيها الأصدقاء ! أيها الرفاق ! يا غواة الشعر !
ويا أنصار كل ما هو جميل وعذب ورشيق !
لا تدعوا اليأس يغلبكم في هذه اللحظة الحزينة !
إن اليوم السار قريب وسيخترق الضوء الضباب
وتوقف يونيوس عن الكلام ، وكان الرد عليه من
جميع أنحاء الميدان ضجيجاً من السخرية والاستهزاء .
وشخصت نحوه الوجوه وقد علاها الغضب
وارتفعت السواعد منذرة مهددة .

وارتفعت الصيحات الغاضبة تقول « أهذا كل
ما استطعت أن تقدمه لنا ؟ فليزل هذا النظام السخيف
من المنصة ! وليتعد هذا الأحق ، ارجموا هذا
المهرج بالبيض المذر والتفاح المعطوب ! اعطونا
حجارة ! نريد حجارة ! »

فأسرع يونيوس بالنزول من المنصة ، وانطلق
من فوره إلى منزله ، ولكنه قبل أن يصل إلى المنزل
سمع عاصفة من التصفيق الحامسي وهتافات الاعجاب
والاستحسان .

وتملكته الدهشة ولكنه حاول أن يتحاشى المراقبة
(لأنه من الخطر الشديد إثارة الجمهور الغاضب) وعاد
أدراجه إلى الميدان .

فإذا كان المنظر الذي أبصرته عيناه ؟

لقد رأى منافسه الشاعر يوليوس جالساً فوق هرج
ذهبي ومحمولاً فوق كواهل أفراد الشعب وقد ارتدى
حلة أرجوانية وقد وضع أكلیل الغار فوق جدائل
شعره المتوجة ، وقد أخذت الجماهير حوله تصيح
قائلة « المجد ، المجد ، المجد للشاعر الخالد يوليوس !
لقد واسانا في أحزاننا وطيب خاطرنا في كربتنا ! لقد
جاد علينا بقصائد أحلى من الشهد المصفى وأعذب
نغماً من أنغام الصنوج وأذكى رائحة من الورد وأصفى
من زرقاء السماء ! احمלוه منتصباً على الأعناق واطلقوا
سحباً من دخان العطور حول رأسه الملهم وروحوا عليه
بسعف النخيل وألقوا عند قدميه كل أمرار بلاد العرب
الطيبة الرائحة ، المجدله » .

فاقترب يونيوس من أحد هؤلاء المتحمسين وقال
له « خبرني أيها الرفيق ما هي أبيات الشعر التي أدخل
بها يوليوس السرور على قلوبكم ؟ وإلى آسف لأنني
لم أكن في الميدان حينما ألقى أبياته ! فتفضل بإعادتها
على سمعي إذا كانت لا تزال في ذاكرتك » .

فأجاب الرجل قائلاً « وهل يمكن أن ينسى مثل
هذا الشعر ؟ وماذا تظن بي ؟ استمع إلى واستمتع ،
استمتع معنا ! »

لأنه استهلها هكذا « يا محبي الشعر » هذا الشاعر
الموهوب .

« يا محبي الشعر ! ويا أيها الرفاق والأصدقاء !
ويا هواة كل ما هو جميل ومحبوب وصادق !
لا يغلبكم اليأس في هذه اللحظة الحزنة !
فالضوء السار آت ! وسيبدد النهار شمل الليل !
فأرايك في هذا الشعر ؟ »

فصاح يونيوس قائلاً « يا لله ! إنها أبيات الشعر
التي نظمها ، ولا بد أن يوليوس كان بين الجماعة حينما
أنشدتها ، لقد سمعها وأعادها بتغيرات طفيفة في بعض
الألفاظ . . وهي تغيرات لم تردها حسناً »

فأجاب المواطن الذى سأله يونيوس وقد علت وجهه قفرة « آه ! إني أعرفك الآن .. فأنت يونيوس ، وإنك بين اثنتين ، فإما أنك حاسد أو جاهل .. انظر ناحية واحدة فقط أيها البائس التعس الحظ ! لقد أجاد يوليوس التعبير حينما قال « والنهار سيبدد شمل الليل » .

ولكن قلت أنت مثل هذا الهراء « سيخترق الضوء الضباب » فأى ضوء ؟ وأى ضباب ؟
فبدأ يونيوس يقول « ولكن أليس القولان متشابهين ... » .

فاعترضه زميله المواطن قائلاً « إذا نطقت بكلمة أخرى فإننى سأدعو الجاهيز ، وهى ستمزقك إرباً » .
فرأى يونيوس أنه من الحزم اللياذ بالصمت ، ولكن رجلاً متقدماً فى السن قد اشتعل رأسه شيئاً كان قد استمع عرضاً الحديث الذى دار بين المواطن

والشاعر ، فاقترب من الشاعر السيء الحظ ووضع يده على كتفه وقال له « يا يونيوس ! لقد عبرت عما اختلج فى نفسك ولكن فى غير الوقت المناسب ، وقد جاء هو بما ليس من عنده ولكنه جاء به فى الوقت المناسب ، ولذلك قد أصاب أما أنت فغزائك فى صدق النية وإخلاص الضمير » .

وبذل ضميره أقصى ما عنده لتسلية فى عزله — ولكن فى الحق أنه لم يوفق التوفيق كله ، وفى أثناء ذلك وعلى مبعده منه بين الهتافات المدوية والاستمتاع بأشعة الشمس الذهبية الغلابة ، فى الحلة الأرجوانية اللامعة وحول جبينه الغار ، كان يوليوس يتقدم بين أمواج البخور الفياضة بخطوات وثيدة ، كأنه أحد القياصرة فى طريقه إلى حفلة التتويج ، وكانت سعف النخل المستطيلة ترتفع وتنحنى أمامه على التوالى للتعبير عن الإعجاب الدائم المتجدد الذى يملأ قلوب زملائه المواطنين المأخوذين به » .